التوحيد (٢)

الدرس العاشر

باب قول الله تعالى:

(أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

الاستفهام في قوله (أفأمنوا) للإنكار وكذلك ما قبلها من الآيات فيها استفهام لإنكار ما هم فيه من السهو واللهو والغفلة ، ومن إقامتهم على المعاصي، وهذا كله أمن من مكر الله تعالى ، قال تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٩٦} أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ{٩٧} أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ{٩٨} أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ{٩٩} سورة الأعراف

سؤال: هل يوصف الله تعالى بالماكر؟

الجواب: أنه لا يوصف بها على سبيل الإطلاق فلا يجوز أن نصف الله بالماكر، ولا ننفي عنه هذه الصفة بإطلاق، وإنما نصفه بها سبحانه وتعالى على سبيل المدح، كما في الآيات، قوله تعالى: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}آل عمران٥٤، وقوله سبحانه :{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}الأعراف٩٩، وقوله جل وعز: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}الأنفال٣٠، ولا يسمى الله بها

المكر: هو الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر

فائدة: الخيانة لا يوصف الله تعالى بها، بل ينزه سبحانه عنها؛ لأنه نقص وذم في كل الأحوال.

قال المؤلف رحمه الله :وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾.

الشرح: القنوط أن يبعد الإنسان الرجاء والأمل بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه، و (الضالون) هم من فقدوا الهداية مع قربهم منها، ولذلك عبر بـ (الضالون) للقانطين من رحمة الله.

ويحرم القنوط من رحمة الله؛ لأنه سوء ظن بالله تعالى، فالله تعالى رحيم

ومع ذلك فالقانط يستبعد هذه الرحمة فكأنه يطعن فيها، والله تعالى قادر، والقانط يطعن في قدرة الله تعالى.

ويحرم على الإنسان أن يستبعد كشف الكربة؛ لأن الذي يكشف الكرب ويفرج الهموم هو الله تعالى.

سؤال: لماذا ذكر المؤلف آية الأمن من مكر الله ثم أعقبها بآية تحريم القنوط؟

قال بعض أهل العلم: لأن الأولى فيها ذكر الخوف من الله وأهميته، والثانية فيها ذكر الرجاء وأهميته.

قال المؤلف رحمه الله: وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: اَلشِّرْكُ بِاَللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللَّهِ».

الشرح: الروح هو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله محرم وهو من كبائر الذنوب، واليأس: انقطاع الأمل بتغير الأحوال وتحسنها، وانعدام الرجاء من رحمة الله كفر بالله تعالى، قال تعالى: {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}يوسف٨٧، وقال سبحانه: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ }هود٩، ولذا فالواجب على المسلم والمسلمة ألا ييأسا من روح الله، وأن يصبرا على ما أصابهما ولا يستبعدا الفرج من الله تعالى، كما أن زوال الكرب بيد الله تعالى متى ما شاء سبحانه، ومن موانع إجابة الدعاء بتنفيس الكرب الاستعجال بالفرج وقد ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي. متفق عليه

قال المؤلف رحمه الله: وَعَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَكْبَرُ اَلْكَبَائِرِ اَلْإِشْرَاكُ بِاَللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اَللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ. رَوَاهُ عَبْدُ اَلرَّزَّاقِ.

الشرح: القنوط يختلف عن اليأس، بأن القنوط استبعاد رحمة الله واستبعاد حصول المطلوب، وأما اليأس فهو استبعاد زوال المكروه.

واليأس أشد من القنوط وهو ظاهر القرآن فقد قال الله في شأن اليأس: {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}يوسف٨٧، وقال شأن القنوط:

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾. وليس كل ضلال يصل إلى درجة الكفر.

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

الصبر على أقدار الله تعالى من علامات الإيمان ، وكلما صبر العبد على المصيبة كان ذلك دلالة على علو إيمانه وارتفاع قدره عند الله تعالى ، ولا يزال المؤمن يصبر على ما يصيبه محتسباً أجره على الله وراضياً بقدر الله حتى يلاقي ربه وهو عنه راضٍ ، فيوفى أجره يوم القيامة بغير حساب ، كما قال الله تعالى : {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}الزمر١٠

والصبر أنواع ثلاثة :

١- صبر على طاعة الله تعالى ، قال الله تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) ١٣٢ طه وقال سبحانه : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) ٤٨ الطور. وقال سبحانه : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) ٢٨ الكهف.

٢- صبر عن معصية الله ، كصبر يوسف عليه الصلاة والسلام عن الوقوع في الفاحشة ، ولاشك أن من صبر عن ذلك أن له أجراً عظيماً عند الله تعالى ، وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه و سلم قال (سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عدل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) متفق عليه

وكيف يصبر الإنسان عن معصية الله تعالى ؟ وهو ضعيف أمام الفتن ؟ لابد له من التعرف على وسائل الثبات على دين الله ، ولابد له من بذل الأسباب التي تعينه على الفرار بدينه من الفتن

٣- صبر على أقدار الله ، وهو المراد به في هذا الباب ، قال الله تعالى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) ٣٥ الأحقاف

مسألة : أي انواع الصبر أفضل ؟ الأظهر أن الأفضل بحسب الحال ، فقد يمر الإنسان بمصيبة فيصبر عليها ويكون صبره خيراً من كثير من الطاعات

، لكن من حيث الأصل فالصبر على طاعة الله ثم عن المعصية ثم على الأقدار بهذا الترتيب

قال المؤلف رحمه الله : وقول الله تعالى : { وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } التغابن١١ . قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم .

الشرح : قوله تعالى : ومن يؤمن بالله يهد قلبه : أي يعلم أن ما أصابه إنما هو بقدر الله تعالى فدعاه ذلك إلى الصبر والاحتساب ، فإن الله تعالى يهدي قلبه للرضا والتسليم .

قال القرطبي : وقال ابن عباس : هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

والصبر : حبس النفس ، بحبس الجوارح عما يغضب الله ، وذلك بأن يحبس قلبه عن التسخط ، ولسانه عن القول المحرم ، وبصره عن النظر الحرام ، وهكذا بقية الجوارح

قال المؤلف رحمه الله : وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت .

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية .

الشرح : الطعن في النسب والنياحة على الميت كلاهما محرم تحريماً شديداً لإطلاق الكفر فيهما ، وقد اختلف العلماء في معنى الكفر في الحديث على أقوال ، قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم : فيه أقوال أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية . والثاني : أنه يؤدي إلى الكفر . والثالث : أنه كفر النعمة والإحسان . والرابع : أن ذلك في المستحل . ا.هـ

والنياحة على الميت من عدم الصبر على قدر الله ، وعدم الرضا والتسخط ، وهو محرم لهذا الحديث ، ومن صوره ضرب الخدود و شق الجيوب

قوله دعوى الجاهلية ، والجاهلية ما كان قبل الإسلام ، وقد كان لأهل الجاهلية دعوى عند حدوث المصيبة ، قال المناوي في فيض القدير : أي

نادى بمثل ندائهم الغير الجائز شرعا كأن يقول واكهفاه واجبلاه وتفسيره بأن عادتهم أن الرجل إذا غلب في الخصام نادى بأعلى صوته يا آل فلان لقومه فيبادرون لنصره ظالما أو مظلوما . ا.هـ

قال المؤلف رحمه الله : وعن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه ، حتى يوافي به يوم القيامة .

الشرح : ما يصيب العبد المسلم من مصائب هي خير له في دينه ، لهذا الحديث ، والمصيبة التي تصيب المسلم تكون كفارة له ورفعة لدرجاته ، لكن لابد من الصبر عليها ، وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها . متفق عليه ولمسلم : ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حطت عنه خطيئة

والمؤمن يتذكر عند المصيبة أنه مبتلى فيصبر فتكون العاقبة خيراً له ، وقد ثبت عن صهيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . رواه مسلم

وأحوال الناس أمام المصائب أربعة :

١- التسخط : ولاشك أنه محرم ، قال تعالى : ({وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) ١١ الحج . وقد يتسخط بلطم الخدود وشق الجيوب أو بالدعاء بالويل والثبور أو غيره مما يتسخط به

٢- الصبر : ويحتاج إلى نوع من المجاهدة لأن الغالب على النفوس أنها تتألم لما يحدث لها ، وقد ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه إن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر . رواه البخاري

٣- الرضا : وهذا من تمام التربية الإيمانية ، حينما يرضى بقضاء الله

تعالى له

٤- الشكر : وهو أرفع مرتبة من الرضا ، لأن قلبه معلق بالله تعالى وبثوابه وتكفيره للسيئات فيعلم يقيناً أن ما أصابه كفارة ورفعة ، كما في الحديث السابق وفيه : ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حطت عنه خطيئة

قال المؤلف رحمه الله : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . حسنه الترمذي

الشرح : أشد الناس بلاء أقربهم إلى الله تعالى ، وقد ثبت عن مصعب بن سعد ، عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ، قال : " الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة : زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة "

وأعظم الناس بلاءً هو النبي صلى الله عليه وسلم حيث استمر معه البلاء منذ ولد حتى لقي ربه ، فإنه ولد يتيم الأب ثم حصلت حادثة شق الصدر ثم ماتت أمه ثم مات جده ثم كفله عمه أبو طالب على فقر وحاجة ، وعاش طفولته يتيم الأبوين ، وعمل برعي الغنم وهو صغير السن ، ثم لما كبر أتاه أعظم تكليف ، ثم استمر البلاء معه واشتد في أثناء دعوته ، ثم ماتت خديجة أحب الناس إليه ، ومات عمه أبو طالب الذي كان يحوطه ويحميه من قريش ، ثم يهاجر ويترك بلده التي ولد وتربى فيها ، ويدخل المدينة ، فتنفتح صفحة أخرى من البلاء ، ولا يزال الأعداء يتربصون به وهو يدعو إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك ، وتمر به مواقف عظيمة وعصيبة ، فلا يملك معها إلا الصبر والاحتساب ويمضي في نشر رسالته ، حتى يلاقي الله بمرض يوعك فيه كما يوعك الرجلان ، وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك وعكا شديدا فمسسته بيدي فقلت يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم فقلت ذلك أن لك أجرين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يصيبه أذى مرض فما سواه إلا حط الله له سيئاته كما تحط الشجرة ورقها .

متفق عليه

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام حصل لهم بلاء عظيم فصبروا واحتسبوا ، فمن ذلك :

نوح عليه السلام بعدم استجابة قومه له وانضمام زوجته وابنه إليهم ، ورؤيته ابنه يغرق على شركه . قال تعالى :

إبراهيم عليه السلام ابتلي بالأمر بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ{١٠٢} فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ{١٠٣} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ{١٠٤} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١٠٥} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ{١٠٦} الصافات ، وابتلي بمحاربة والده له ورفضه الدخول في الإسلام قال الله تعالى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً{٤١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً{٤٢} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً{٤٣} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً{٤٤} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً{٤٥} قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً{٤٦} قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً{٤٧} وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً{٤٨} سورة مريم

ويعقوب عليه السلام يبتلى سنوات طويلة بفقد ولده يوسف ، ثم ابنه الآخر

وموسى عليه السلام يبتلى بفرعون ثم ببني إسرائيل

وأيوب عليه السلام ابتلي بلاء عظيماً : (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) الأنبياء

وغيرهم كثير من الأنبياء ابتلوا بلاء عظيماً فصبروا واحتسبوا

معهد العلوم الشرعية العالمي